



كان من المؤمل أن يقود انتهاء المعارك الحربية الذي سعت إليه الدول المعنية بالقضية السورية، والتي قبلت من أجله تقديم تنازلاتٍ سياسية كبيرة لروسيا وإيران والأسد، إلى تعبيد طريق المفاوضات السياسية لوضع حد للكارثة السورية المستمرة منذ أكثر من سبع سنوات. لكن من الواضح الآن أن مسار المفاوضات والحل السياسي المزعوم في طريقٍ مسدودة تماماً. وإذا استمرت الأمور على ما هي عليه، لن يكون هناك أيٌّ أملٌ في التقدُّم خطوة واحدة على طريق الدخول في الحل، وسوف ينتهي الأمر بتكرис الوضع الراهن الذي يقسم سوريا إلى مناطق نفوذ متعددة، و يجعل منه وضعًا طويل المدى .

والواقع أن عوامل تعطيل الحل السياسي لم تولد الاليوم، لكنها رافقت العمل الدبلوماسي الدولي على المسألة السورية منذ بدايتها. وكانت جرثومة هذا التعطيل كامنةً في قرارات مجلس الأمن الذي خضع لإملاءات موسكو وإرادتها في النهاية، وأراد أن يربط أيٌّ مخرج للصراع الدائر في سوريا بتفاهمٍ بين نظامٍ رمى بنفسه في حربٍ شاملة، لم يوفر فيها سلاحاً، لا عسكرياً ولا سياسياً ولا نفسياً وإنلماً، ولم ير لها أفقاً أو ضوابط غير سحق الانتفاضة الشعبية، وإغراقها بالدماء، من دون أي حسابٍ للربح والخسارة، ومعارضةٍ مرتبطةٍ بجمهورٍ كان على ثقةٍ مطلقةٍ بحقه في التغيير، كما حصل في البلدان القريبة الأخرى، وبقدرته على صناعته، واستعداده غير المسبوق للتضحية بكل ما يملكه للوصول إلى غاياته. وما كان من الممكن مثل هذا التصور الذي يأخذ، بالدرجة الأولى، مراعاة النظام ومصالحه، ويراهن على إغرائه لتقديم بعض التنازلات للشعب والمعارضة، أن يفضي إلى شيء آخر، سوى تشجيع الجاني على الاستمرار في جنائته، ودفع المجنى عليه إلى مزيدٍ من المغالاة في مطالبه، ليس تجاه النظام فحسب، وإنما تجاه المجتمع الدولي الذي وضع نفسه وصياً على المسائلة، وحامياً للعدالة في الوقت نفسه .

بين أسياد وأحرار، يُعترَفُ كُلُّ مِنْهُمَا بِالآخر، اتفاقُ الْحُلُولِ الْوَسْطَى، عَلَى مُبْدَأٍ لَا غَالِبٌ وَلَا مُغْلُوبٌ، لِيُسْمَكَنُ فَحْسِبُ، وَلَكِنَّهُ الْمُخْرَجُ الْوَحِيدُ لِأَيِّ نِزَاعٍ. لَكِنَّهُ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَتَحَقَّقَ بَيْنَ أَطْرَافٍ لَا يَعْرِفُ بَعْضُهَا، وَلَا تَرَى فِي خَصْمَهَا نَدًا وَلَا طَرْفًا لِدِيهِ حَقٌّ، أَيْ حَقٌّ. كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالْدَّمَارِ وَالْعَذَابِ، كَانَ ثَمَنُ الرِّهَانِ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ مُصَالَحةِ الدَّيْبِ مَعَ الْحَمْلِ وَالْجَلَادِ مَعَ الْضَّحْيَةِ، أَنَّ الدَّيْبَ ازْدَادَ ذَبَبَيَّةً، وَزَادَتْ شَهُوتَهُ لِفَتْرَاسِ الْحَمْلِ، وَلَنْ يَتَوَقَّفَ مِنْ دُونِ إِرْوَاءِ غَلِيلِهِ.

أَمَامَ إِرَادَةِ سَحْقِ الْإِنْتِفَاضَةِ، وَرَفِضَ أَيْ حَلَّ سِيَاسِيٌّ، أَوْ مَسَاوِمَةٍ عَلَى السِّيَطَرَةِ عَلَى دُولَةٍ اعْتَبَرَهَا الْأَسْدُ، مِنْذَ بَدْءَيْهِ حُكْمُهُ، مَلْكِيَّةِ الْعَائِلَيَّةِ الْخَاصَّةِ، وَالدُّعُومِ الْإِسْتِئْنَائِيِّ الَّذِي لَقِيَهُ عَلَى يَدِي طَهْرَانَ وَمُوسَكُو، الطَّامِعَتِينِ فِي إِدْرَاجِ شَهُوَةِ السُّلْطَةِ لِدِي الْطَّغْمَةِ الْحَاكِمَةِ ضَمِّنَ أَجْنَدِيَّهُمَا إِلْقَلِيمِيَّةً وَالْوَدَلِيَّةَ، حَاوَلَتِ الدُّولَ الْعَرَبِيَّةُ وَالْغَرَبِيَّةُ، كَمَا حَاوَلَتِ الْمُنْظَمَةُ الدُّولِيَّةُ، أَنْ تَرَأَبَ الصَّدْعَ، بِتَقْدِيمِ مُزِيدٍ مِنَ التَّنَازُلَاتِ لِإِغْرَاءِ الْأَسْدِ وَحَلْفَائِهِ بِالْقَبُولِ بِحُلُولِ سِيَاسِيٍّ أَوْ بِتَسوِيَّةٍ. هَكُذا تَمَّ التَّرَاجُعُ عَنْ بِيَانِ جَنِيفِ الْأَوَّلِ الَّذِي يَتَحدَّثُ عَنْ هَيَّةِ حُكْمِ اِنْتِقَالِيِّ كَامِلَةِ الصِّلَاحِيَّاتِ، وَسَمِعَ لِلْرُّوسِ أَنْ يَفْسُرُوا قَرَارَ مَجْلِسِ الْأَمْنِ الدُّولِيِّ 2218، ثُمَّ 2254، عَلَى حُسْبِ مَزَاجِهِمْ، لِتَثْبِيتِ نَقْطَةِ بَقاءِ الْأَسْدِ أَوْ اسْتِبعَادِهِ مِنَ النَّقَاشِ. وَهَكُذا قَبْلَ الْمَجَمِعِ الدُّولِيِّ، بَعْدَ فَشْلِ "جَنِيفِ 1"، بِالْتَّخْلِيِّ عَنْ مَبَادِئِ الْمِبَادِرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْوَدَلِيَّةِ الَّتِي كَانَ أَوَّلَ مَبْعَوثَ أَمْمِيَّ إِلَى سُورِيَّةِ، كَوْفِيُّ أَنَانَ، قَدْ صَاغَهَا، بِادِئًا بِحُسْنِيَّةِ وَقْفِ الْقَتَالِ، وَسَحْبِ الْجَيْشِ وَآليَّاتِهِ مِنَ الْمَدْنِ، وَإِطْلَاقِ سَرَاحِ الْمُعْتَقَلِينَ وَالسَّماَحِ لِلشَّعَبِ بِالْتَّعْبِيرِ عَنْ رَأْيِهِ بِحُسْنِيَّةِ، بِتَبَيْنِيِّ مَوَاقِفِ مُلْتَبِسَةٍ أَوْ ضَعِيفَةٍ أَمَامَ التَّصْعِيدِ الرُّوسِيِّ، وَصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ تَحْمِيلِ النَّظَامِ الْمَسْؤُلَيَّةِ عَنْ إِفْشَالِ مَفَاوِضَاتِ جَنِيفِ 2، وَالَّتِي رَفَضَ فِيهَا مَمْثُلُ النَّظَامِ، بِشَارِ الْجَعْفَرِيِّ، جَمِيعَ مَحاوِلَاتِ الْمَبْعَوثِ الْأَمْمِيِّ، الْأَخْضَرِ الْإِبْرَاهِيْمِيِّ، فَتَحَّ مَلْفُ الْإِنْتِقَالِ السِّيَاسِيِّ. كَمَا قَبْلَ الْمَجَمِعِ الدُّولِيِّ، فَيَمَا بَعْدُ، وَمِنْ سَمْوَأْنَفُسِهِمْ أَصْدِقَاءِ الشَّعَبِ السُّورِيِّ، تَرْكِيزُ جَمِيعِ الْجَهُودِ نَحْوِ الْحَرْبِ عَلَى الْإِرْهَابِ، وَقَطَعُوْهُ الْمَسَاعِدَاتَ عَنِ الْمَعَارِضَةِ الْمُسْلَحَةِ، مُسْتَسِلِّمِيْنَ أَمَامَ الرُّوسِ، وَآمِلِيْنَ بِالْحَصُولِ عَلَى تَعَاوُنِهِمْ فِي الضَّغْطِ عَلَى النَّظَامِ لِلتَّوْصِلِ إِلَى تَسْوِيَّةٍ. وَلَكِنَّ الرُّوسَ الَّذِينَ لَمْ يَخْفُوا يَوْمًا دَعَمُوهُمْ بَقاءَ الْأَسْدِ اسْتَغْلَلُوا تَخَالُ الْغَربِ، أَوْ تَرَدَّدَ قَادُتُهُ وَضَيَّاعُ بُوْصَلَتِهِمْ فِي الْمَسَأَلَةِ السُّورِيَّةِ، وَعَمِلُوا، بَعْكَسَ مَا كَانَ الْغَربُ يَنْتَظِرُهُمْ مِنْهُمْ، عَلَى تَشْجِيعِ الْأَسْدِ عَلَى تَبَيْنِيِّ الْحَلِّ الْعَسْكَرِيِّ وَحْسَمِ الْمَصْرَاعِ بِالْفَوْةِ، وَقَدَّمُوا كُلَّ مَا يَلْزَمُ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ هَدْفِهِمْ هَذَا .

وَبِالْمَثَلِ، وَبِمَسَاعِدَةِ تَوَاطُؤِ الْمَبْعَوثِ الْأَمْمِيِّ، سِتِيفَانِ دِيْ مِيْسُوْرُوْرَا، وَبِالْاِسْتِعَانَةِ بِقُوَّةِ سَلاحِ الْجَوِّ الْرُّوسِيِّ التَّدَمِيرِيِّ، وَالتَّهْجِيرِ الْقَسْرِيِّ لِلْسَّكَانِ الْمَدِنِيِّينِ، وَتَخْرِيبِ الْحَيَاةِ الْاِقْتَصَادِيَّةِ وَالْاِجْتَمَاعِيَّةِ فِي الْبَلَادِ، قَبْلَ الْغَربِ تَهْمِيشِ الرُّوسِ مَسَارِ جَنِيفِ بِشَكْلِ سَافِرٍ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَى سَعْيِهِمْ إِلَى الْاِلْتِفَافِ عَلَيْهِ، وَعَلَى قَرَارَاتِ مَجْلِسِ الْأَمْنِ الَّتِي تَؤْطِرُهُ وَتَشَكَّلُ مَرْجِعِيَّتِهِ، وَإِيجَادِ مَسَارَاتٍ مَوَازِيَّةٍ لَا تَخْضُعُ لِأَيِّ مَرْجِعٍ قَانُونِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً سُوْيِّ إِرَادَةِ الدُّولِ الْمَشَارِكَةِ فِيهَا. هَكُذا ابْتَدَعَ الرُّوسِ مَسَارَ أَسْتَانَةِ لِيَضْمُمُوا إِيَّرَانَ إِلَى دَائِرَةِ الدُّولِ الْمَشَارِكَةِ فِي التَّفاوُضِ عَلَى مَصِيرِ سُورِيَّةِ وَشَعْبِهَا، وَلِيَقْسِمُوا الْمَعَارِضَةَ، وَيَدْخُلُوا عَنَاصِرَ التَّنَافُسِ وَالنَّزَاعِ مَا بَيْنَ قِيَادَاتِ عَسْكَرِيَّةٍ وَقِيَادَاتِ سِيَاسِيَّةٍ. ثُمَّ أَكْمَلُوا ذَلِكَ بِفَتْحِ مَسَارٍ آخَرَ فِي سُوْتِشِيِّ، بِهَدْفِ سَحْبِ الْبَسَاطِ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِ الْأَمْمِ الْمَتَّحِدةِ، وَالْعَمَلِ عَلَى إِعَادَةِ تَرْكِيبِ الْمَعَارِضَةِ لِصَالِحِ الْمَنْصَاتِ الْأَقْرَبِ إِلَى وجْهَ نَظَرِ مُوسَكُوِّ وَالنَّظَامِ السُّورِيِّ. وَفِي النَّهايَةِ، قَبَلَتِ الدُّولَ الْمَعْنَيَّةِ بِالْمَلْفُ السُّورِيِّ خَطَّةِ مُوسَكُوِّ فِي تَعْلِيقِ مَفَاوِضَاتِ جَنِيفِ، وَاسْتَبَدَالِهَا بِاِتِّفَاقَاتِ خَفْضِ التَّصْعِيدِ الَّتِي سَمِحَتْ لِلْأَسْدِ وَحَلْفَائِهِ بِتَجْزِيَّةِ جَبَهَاتِ الْمَعَارِضَةِ، وَانْتَزَاعِ اسْتِسْلَامِهَا وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى .

وَقَدْ مَكَّنَ نِجَاحَ مُوسَكُوِّ فِي تَجْنِبِ مَسَارِ جَنِيفِ الدُّولِيِّ، وَاسْتَبَدَالِهِ بِمَحَادِثَاتٍ جَانِبِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةِ الْأَطْرَافِ، وَإِيجَادِ مَسَارَاتٍ مَوَازِيَّةٍ فِي أَسْتَانَةِ وَسُوْتِشِيِّ وَمُوسَكُوِّ، وَتَحْيِيدِ الْأَمْمِ الْمَتَّحِدةِ، مِنَ الْاحْتِفَاظِ بِالْمِبَادِرَةِ وَالْعَمَلِ عَلَى الدُّفَعِ نَحْوِ مَفَاوِضَاتٍ وَحَلُولٍ تَكُونُ وَحْدَهَا الْقَادِرَةُ عَلَى التَّحْكُمِ بِنَتْائِجِهَا. وَهَذَا هُوَ الْهَدْفُ أَيْضًا مِنْ عَقْدِ مؤَتَمِرِ إِسْطَانْبُولِ أَمْسِ الْسَّبْتِ (27/10/2018)، عَلَى أَمْلِ شَقَّ الْصَّفِ الْأَوْرُوبِيِّ، وَالْاِلْتِفَافِ عَلَى رَفْضِ الْغَربِ، وَالْمَجَمِعِ الدُّولِيِّ عَمُومًا، تَموِيلِ إِعْمَارِ سُورِيَّةِ فِي ظَلِّ النَّظَامِ ذَاتِهِ الَّذِي عَمِلَ كُلَّ مَا يَسْتَطِعُهُ لِتَدَمِيرِهِ .

تجد موسكو التي ربحت الحرب من دون شك أمام فسائل المعارضة المسلحة التي فشلت في توحيد صفوفها، والعمل حسب خطة وطنية وبعيدة المدى، تجد نفسهااليوم عاجزةً عن تحقيق السلام الذي يتوقف عليه ما تأمل روسيا أن تقطفه من ثمارٍ سياسيةٍ، تتجاوز في آثارها الوضع السوري، ودور موسكو في سورية المستقبل، إلى دور روسيا المقبل على الصعیدین، الإقليمي والدولي. لا ينجم هذا العجز عن "الصحوة" الأميركيّة أخيراً، واكتشاف واشنطن خطر السماح بالتمدد الإيراني في دول الإقليم، ورغبتها في إعادة تعزيز وجودها العسكري والسياسي في المنطقة، وفي سورية والعراق خصوصاً الآن، وإنما أكثر من ذلك، من افتقارها للتفكير الواقعي، واعتقادها بأنها تستطيع أن تخدع الجميع، فهي تدعو الدول الغربية إلى الانخراط في عملية إعادة الإعمار، في الوقت الذي تريد أن تحافظ لنفسها وحلفائها المحليين والإقليميين، بالسيطرة الكاملة على مسار المفاوضات مستقبلاً سورياً ذاتها. وهي تريد أن تجذب المعارضة السورية إلى موقفها، وتقنعها بالاصطفاف وراء خططها "للحل السياسي" في وقتٍ لا تخفي فيه لحظةً تمسّكها بحكم الأسد، وتأكيدها على شرعنته، أي نفيها شرعية الانتفاضة الشعبية ذاتها .

ما الذي سيدفع الغرب إلى تمويل الإعمار في سورية لصالح روسيا وحدها، ولماذا ستقبل المعارضة السورية التضحية بنفسها على مذبح إعادة تأهيل الأسد ونظامه، وكيف يمكن للأمم المتحدة أن تقود مفاوضاتٍ يشترط فيها، على لسان وزير خارجيته، نظاماً امتهن القتل واستباحة حقوق الأفراد والجماعات، أن تكون له أغلبية "لجنتها الدستورية"، وأن يضمن رئاستها، وأن تجري تحت قبة برلمانه، من دون أن تثير هذه المفاوضات استهزاء العالم وسخريته؟

المصادر:

العربي الجديد